سورة الفتح

مدنية [نزلت في الطريق عند الانصراف من الحديبية]
وآياتها تسعٌ وعشرون [نزلت بعد الجمعة]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)﴾

هو فتح مكة، وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية عدة له بالفتح، وجيء به على لفظ الماضي على عادة ربّ العزة سبحانه في أخباره؛ لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبِر[1] ما لا يخفى[2]. فإن قلت: كيف جعل فتح مكة علةً للمغفرة؟ قلت: لم يجعل علة للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة: وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز، كأنه قيل: يسرنا لك فتح مكة، ونصرناك على عدوّك، لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل. ويجوز أن يكون فتح مكة ـ من حيث إنه جهاد للعدوّ ـ سببًا للغفران والثواب والفتح والظفر بالبلد عنوة أو صلحًا بحرب أو بغير حرب، لأنه منغلق ما لم يظفر به، فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح. وقيل: هو فتح الحديبية، ولم يكن فيه قتال شديد، ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم. وعن الكلبي: ظهروا عليهم حتى سألوا الصلح. فإن قلت: كيف يكون فتحًا وقد أحصروا فنحروا وحلقوا بالحديبية؟ قلت: كان ذلك قبل الهدنة، فلما طلبوها وتمت كان فتحًا مبينًا. وعن موسى بن عقبة: أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعًا، فقال رجل من أصحابه: ما هذا بفتح، لقد صدّونا

---

(١) قوله: «علو شأن المخبر» لعله: المخبر به. وعبارة النسفي: المخبر عنه. (ع)

(٢) قال محمود: «جاء الإخبار بالفتح على لفظ الماضي وإن لم يقع بعد؛ لأن المراد فتح مكة، والآية نزلت حين رجع عليه الصلاة والسلام من الحديبية قبل عام الفتح، وذلك على عادة رب العزة في إخباره؛ لأنها كانت محققة نزلت منزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى» قال أحمد: ومن الفخامة الالتفات من التكلم إلى الغيبة.

عن البيت وصد هدينا، فبلغ النبي ﷺ فقال: «بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتوح، وقد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح[1]، ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا» (١٤٣٨)، وعن الشعبي: نزلت بالحديبية وأصاب رسول الله ﷺ في تلك الغزوة ما لم يصب في غزوة، أصاب: أن بويع بيعة الرضوان، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وظهرت الروم على فارس؛ وبلغ الهدى محله، وأطعموا نخل خيبر، وكان في فتح الحديبية آية عظيمة. وذلك أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة، فتمضمض رسول الله ﷺ ثم مجه فيها، فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه. وقيل: فجاش الماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد (١٤٣٩) وقيل: هو فتح خيبر،

١٤٣٨ ـ أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة»: (٤/ ١٦٠ ـ ١٦١) من طريق أبي عبد الله الحافظ عن إسماعيل ابن محمد بن الفضل، عن جده، عن إبراهيم بن المنذر، عن محمد بن فُليح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب، عن أبي عبد الله بن الحافظ، عن أبي جعفر البغدادي، عن محمد بن عمرو بن خالد، عن أبيه، عن ابن لهيعة، قال: حدثنا أبو الأسود عن عروة قالوا: وأقبل رسول الله ـ ﷺ ـ من الحديبية راجعًا، فقال رجالٌ... إلى آخره فذكره قال الحافظ ابن حجر:
هكذا هو في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري، وأخرجه البيهقي في الدلائل من طريقه، ومن طريق أبي الأسود عن عروة ـ أيضًا ـ نحوه مطولاً. انتهى.

١٤٣٩ ـ أخرجه البخاري (٧/ ٢٧٩): كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام، حديث (٣٥٧٧)، و(٨/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩): كتاب المغازي باب غزوة الحديبية، حديث (٤١٥٠ ـ ٤١٥١) من طريق أبي إسحاق عن البراء بن عازب به.
وقال الحافظ ابن حجر:
متفق عليه من حديث البراء مطولاً باللفظ الأول، ولمسلم من حديث سلمة بن الأكوع؛ قال: قدمنا المدينة ونحن أربع عشرة مائة وعليها خمسون شاة لا ترويها، فقعد رسول الله ـ ﷺ ـ على جنب الركية فإما دعا وإما بصق، قال: فجاشت، فسقينا واستقينا. وعند البخاري في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، فلم يلبث الناس أن سرحوه، وشكوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ العطش فانتزع سهمًا من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالريء ولا مخالفة في هذا لحديث البراء.، لما رواه الواقدي من طريق عطاء بن أبي مروان، عن أبيه حدثني أربعة عشر رجلاً من أسلم صحابة أن ناجية بن الأعجم. قال: «دعاني رسول الله ـ ﷺ ـ حين شكى إليه من قلة الماء فدفع إلي سهمًا من كنانته وأمر بدلو من مائها، فمضمض فاه منه ثم مجه في الدلو، وقال لي: أنزل الماء فصبه في البئر وفتحت الماء بالسهم. ففعلت. فوالذي بعثه بالحق. ما كدت أخرج حتى كاد يغمرني». وروي أيضًا من حديث قتادة. قال: لما دعا رسول الله ـ ﷺ ـ الرجل. تنزل بالسهم وتوضأ، ومج فاه منه، ثم رده في البئر: جاشت بالرواء. انتهى.

---

(١) قوله: «عن بلادهم بالراح» في الصحاح «الراح»: الخمر، والراح: جمع راحة وهي الكف. والراح: الارتياح، اهـ والظاهر هنا الثالث. (ع)

وقيل: فتح الروم. وقيل: فتح الله له بالإسلام والنبوّة والدعوة بالحجة والسيف، ولا فتح أبين منه وأعظم، وهو رأس الفتوح كلها، إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومتشعب منه. وقيل: معناه قضينا لك قضاء بينًا على أهل مكة أن تدخلها أنت/ ٢/ ١٨٤ب وأصحابك من قابل؛ لتطوفوا بالبيت: من الفتاحة وهي الحكومة، وكذا عن قتادة ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ يريد: جميع ما فرط منك. وعن مقاتل: ما تقدم في الجاهلية وما بعدها. وقيل: ما تقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد ﴿نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ فيه عز ومنعة ـ أو وصف بصفة المنصور إسنادًا مجازيًا أو عزيزًا صاحبه.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٤﴾ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ السكون كالبهيتة للبهتان، أي: أنزل الله في قلوبهم السكون، والطمأنينة بسبب الصلح والأمن، ليعرفوا فضل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، والهدنة غب القتال، فيزدادوا يقينًا إلى يقينهم، وأنزل فيها السكون إلى ما جاء به محمد عليه السلام من الشرائع ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ بالشرائع مقرونًا إلى إيمانهم وهو التوحيد. عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن أوّل ما أتاهم به النبي ﷺ التوحيد، فلما آمنوا بالله وحده أنزل الصلاة والزكاة، ثم الحج، ثم الجهاد، فازدادوا إيمانًا إلى إيمانهم. أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله عزّ وجل ولرسوله، ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانًا إلى إيمانهم. وقيل: أنزل فيها الرحمة ليتراحموا فيزداد إيمانهم ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يسلط بعضها على بعض كما يقتضيه علمه وحكمته، ومن قضيته أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم أن يفتح لهم، وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه ويشكروها فيستحقوا الثواب، فيثيبهم ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك وكرهوه. وقع السوء: عبارة عن رداءة الشيء وفساده؛ والصدق عن جودته وصلاحه، فقيل في المرضى الصالح من الأفعال: فعل صدق، وفي المسخوط الفاسد منها: فعل سوء. ومعنى ﴿ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ ظنهم أن الله تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهرًا ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ أي: ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم ـ

والسوء: الهلاك والدمار. وقرئ: «دائرة السوء»[1] بالفتح، أي: الدائرة التي يذمونها ويسخطونها، فهي عندهم دائرة سوء، وعند المؤمنين دائرة صدق. فإن قلت: هل من فرق بين السُّوء والسَّوء؟ قلت: هما كالكُره والكَره والضُّعف والضَّعف، من ساء، إلا أنّ المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شيء. وأما السُّوء بالضم فجار مجرى الشر الذي هو نقيض الخير. يقال: أراد به السوء وأراد به الخير؛ ولذلك أضيف الظن إلى المفتوح لكونه مذمومًا؛ وكانت الدائرة محمودة فكان حقها أن لا تضاف إليه إلا على التأويل الذي ذكرنا وأما دائرة السوء بالضم، فلأن الذي أصابهم مكروه وشدة، فصح أن يقع عليه اسم السوء، كقوله عزّ وعلا: ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗ﴾ [الأحزاب: ١٧].

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٩﴾

﴿شَٰهِدٗا﴾ تشهد على أمّتك، كقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]. ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ﴾ الضمير للناس ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ ويقووه بالنصرة ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ ويعظموه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ من التسبيح. أو من السبحة، والضمائر لله عزّ وجلّ والمراد بتعزير الله: تعزير دينه ورسوله ﷺ. ومن فرق الضمائر فقد أبعد. وقرئ: «لتؤمنوا» «وتعززوه»[2] «وتوقروه» «وتسبحوه» بالتاء. والخطاب لرسول الله ﷺ ولأمّته. وقرئ: «وتعزروه» بضم الزاي وكسرها. وتعزروه بضم التاء والتخفيف، وتعززوه بالزايين. وتوقروه من أوقره بمعنى وقره. وتسبحوا الله ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝١٠﴾

لما قال ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أكده تأكيدًا على طريق التخييل[3] فقال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ

---

(١) قوله: «وقرئ دائرة السوء بالفتح، يفيد أن القراءة المشهورة. دائرة السوء. بالضم. (ع)

(٢) قوله: «قرئ لتؤمنوا وتعززوه» يفيد أن قراءة الباء هي المشهورة، وقد تشير إلى تفريق الضمائر قراءة: وتسبحوا الله... الآية. (ع)

(٣) قال محمود: «لما قال: إنما يبايعون الله أكده تأكيدًا على طريق التخييل... الخ» قال أحمد: كلام حسن بعد إسقاط لفظ التخييل وإبداله بالتمثيل، وقد تقدمت أمثاله.

﴿أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ يريد أن يد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين: هي يد الله، والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام، وإنما المعنى: تقرير أن عقدِ الميثاق مع الرسول/ ٢/ ١٨٥أ كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما، كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠] والمراد: بيعة الرضوان ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه. قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: بايعنا رسول الله تحت الشجرة على الموت، وعلى أن لا نفرّ، فما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس وكان منافقًا، اختبأ تحت إبط بعيره ولم يسر مع القوم (١٤٤٠). وقرئ: «إنما يبايعون لله» أي: لأجل الله ولوجهه، وقرئ: «ينكث» بضم الكاف وكسرها، وبما عاهد وعهد ﴿فَسَيُؤۡتِيهِ﴾ بالنون والياء، يقال: وفيت بالعهد وأوفيت به، وهي لغة تهامة. ومنها قوله تعالى: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١] ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ﴿١١﴾﴾

هم الذين خلفوا عن الحديبية، وهم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والديل. وذلك أنّ رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرًا استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذرًا من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت، وأحرم هو ﷺ وساق معه الهدي، ليعلم أنه لا يريد حربًا، فتثاقل كثير من الأعراب وقالوا: يذهب إلى قوم قد غزوه في عُقرِ(١) داره بالمدينة وقتلوا

١٤٤٠ ـ أخرجه مسلم (٧/ ٥ النووي): كتاب الإمارة: باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال. وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، حديث (٦٧ ـ ٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٠ / ١٨٥٦) من طريق أبي الزبير عن جابر به.
وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٣٠٧) إلى أبي يعلى الموصلي والبزار في مسنديهما من حديث أبي سفيان عن جابر به بنحوه.
وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا، بل في حديث جابر «أنه سئل كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنا أربعة عشر مائة فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة. وهي سمرة. فبايعناه. وجد بن قيس اختبأ تحت بطن بعيره، أخرجه مسلم. ولأبي يعلى من هذا الوجه: «لم نبايعه على الموت، وإنما بايعناه على ألاّ نفر، بايعناه كلنا، إلاّ الجد بن قيس؛ فإنه اختبأ تحت بطن بعيره، فهذا ليس فيه أنه بايع ونكث، بل فيه أنه لم يبايع أصلاً. انتهى.

(١) قوله: «قد غزوه في عقر داره» في المصباح: عقر الدار أصلها، وهو محلة القوم. وأهل المدينة =

أصحابه، فيقاتلهم، وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم من يقوم بأشغالهم (١٤٤١). وقرئ: «شغلتنا» بالتشديد ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيب لهم في اعتذارهم. وأن الذي خلفهم ليس بما يقولون، وإنما هو الشك في الله والنفاق؛ وطلبهم للاستغفار أيضًا ليس بصادر عن حقيقة ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم﴾ فمن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ﴾ ما يضركم من قتل أو هزيمة ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ من ظفر وغنيمة[1] وقرئ: «ضرًا»، بالفتح والضم. الأهلون: جمع أهل. ويقال: أهلات، على تقدير تاء التأنيث. كأرض وأرضات، وقد جاء أهلة. وأمّا أهال، فاسم جمع، كليال.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾

وقرئ: «إلى أهلهم» «وَزَيَّنَ»، على البناء للفاعل وهو الشيطان، أو الله عز وجل،

١٤٤١ ـ أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة»: (٤/ ١٦٤) من طريق أبي عبد الله الحافظ، عن عبد الرحمن ابن الحسن القاضي، عن إبراهيم بن الحسين، عن آدم بن أبي إياس، عن ورقاء، عن ابن أبي يحيى، عن مجاهد قال: أري رسول الله ـ ﷺ ـ وهو بالحديبية أنه يدخل مكة... الحديث».
قال الحافظ ابن حجر:
أخرجه البيهقي في الدلائل من رواية آدم عن ورقاء. عن ابن نجيح عن مجاهد نحوه. انتهى.

= يقولون: عقر الدار، بالضم. (ع)

(١) قال محمود: «أي قتلاً وهزيمة أو أراد بكم نفعًا أي ظفرًا وغنيمة» قال أحمد: لا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف، وكأن الأصل ـ والله أعلم ـ: فمن يملك لكم من الله شيئًا إن أراد بكم ضرًا، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعًا؛ لأن مثل هذا النظم يستعمل في الضر، وكذلك ورد في الكتاب العزيز مطردًا، كقوله: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾. ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث «إني لا أملك لكم شيئًا» يخاطب عشيرته وأمثاله كثيرة، وسر اختصاصه بدفع المضرة: أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام ودفع المضرة نفع يضاف للمدفوع عنه، وليس كذلك حرمان المنفعة؛ فإنه ضرر عائد عليه لا له، فإذا ظهر ذلك فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه؛ لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفي لدفع المقدر من خير وشر، فلما تقاربا أدرجهما في عبارة واحدة، وخص عبارة دفع الضر؛ لأنه هو المتوقع لهؤلاء؛ إذ الآية في سياق التهديد أو الوعيد الشديد، وهي نظير قوله: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءًا أو أراد بكم رحمة﴾ فإن العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة. فهاتان الآيتان يرامان في التقرير الذي ذكرته. والله أعلم.

وكلاهما جاء في القرآن ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤]، و﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٤] والبور: من بار، كالهلك: من هلك، بناء ومعنى؛ ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. ويجوز أن يكون جمع بائر كعائذ وعوذ. والمعنى: وكنتم قومًا فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم. أو هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾

﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ مقام مقام لهم، للإيذان بأن من لم يجمع بين الإيمانين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر، ونكر ﴿سَعِيرًا﴾ لأنها نار مخصوصة، كما نكر ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ يدبره تدبير قادر حكيم، فيغفر ويعذب بمشيئته[١]، ومشيئته تابعة لحكمته، وحكمته المغفرة للتائب وتعذيب المصر ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ رحمته سابقة لغضبه، حيث يكفر السيئات باجتناب الكبائر، ويغفر الكبائر بالتوبة.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ إلى غنائم خيبر ﴿أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ﴾ وقرئ: «كلم الله» أن يغيروا موعد الله لأهل الحديبية، وذلك أنه وعدهم أن يعوّضهم من مغانم مكة مغانم خيبر[٢] إذا قفلوا موادعين لا يصيبون منهم

---

(١) قال محمود: «يغفر ويعذب بمشيئته... الخ» قال أحمد: قد تقدمت أمثالها، والقول بأن موجب الحكمة ما ذكر تحكم. هذا وأدلة الشرع القاطعة تأتي على ما يعتقده فلا تبقي ولا تذر، فكم من دليل على أن المغفرة لا تقف على التوبة، وكم يروم اتباع القرآن للرأي الفاسد فيقيد مطلقًا ويحجر واسعًا، والله الموفق.

(٢) قال محمود: «المراد بكلام الله وعده أهل الحديبية بغنائم خيبر عوضًا عما يفوتهم من غنائم مكة... الخ» قال أحمد: فالإضراب الأول إذًا هو المعروف، والثاني هو المستغرب المستعذب الذي ليس فيه مباينة بين الأول والثاني، بل زيادة بينة ومبالغة متمكنة، وإنما كان المنسوب إليهم ثانيًا أشد من المنسوب إليهم أولاً؛ لأن الأول نسبة إلى جهل في شيء مخصوص، وهو نسبتهم الحسد إلى المؤمنين، والثاني يعتبر بجهل على الإطلاق. وقلة فهم على الاسترسال.

شيئًا. وقيل: هو قوله تعالى: ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣] «تحسدوننا» أن نصيب معكم من الغنائم. قرئ: بضم السين وكسرها ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون إلا فهمًا ﴿قَلِيلًا﴾ وهو فطنتهم لأمور الدنيا دون أمور الدين، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧] فإن قلت: ما الفرق بين حرفي الإضراب؟ قلت: الأوّل إضراب معناه: ردّ أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد. والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين، إلى وصفهم بما هو أطم منه، وهو الجهل وقلة الفقه.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾ هم الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعني بني حنيفة قوم مسيلمة، وأهل الردّة الذين حاربهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه؛ لأن مشركي العرب والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم/ ٢/ ١٨٥ب إلا الإسلام أو السيف عند أبي حنيفة ومن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب. والمجوس تقبل منهم الجزية، وعن الشافعي لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب والمجوس دون مشركي العجم والعرب. وهذا دليل على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فإنهم لم يدعوا إلى حرب في أيام رسول الله ﷺ، ولكن بعد وفاته. وكيف يدعوهم رسول الله ﷺ مع قوله تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣] وقيل: هم فارس والروم. ومعنى ﴿يُسْلِمُونَ﴾ ينقادون، لأنّ الروم نصارى، وفارس مجوس يقبل منهم إعطاء الجزية. فإن قلت: عن قتادة أنهم ثقيف وهوازن، وكان ذلك في أيام رسول الله ﷺ؟ قلت: إن صح ذلك فالمعنى: لن تخرجوا معي أبدًا ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدين. أو على قول مجاهد: كان الموعد أنهم لا يتبعون رسول الله ﷺ إلا متطوعين لا نصيب لهم في المغنم ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يريد في غزوة الحديبية. أو يسلمون. معطوف على تقاتلونهم، أي: يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة، أو الإسلام، لا ثالث لهما. وفي قراءة أبيّ: «أو يسلموا» بمعنى: إلى أن يسلموا.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

نفى الحرج عن هؤلاء من ذوي العاهات في التخلف عن الغزو. وقرئ: «ندخله» «ونعذبه» بالنون.

﴿۞ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

هي بيعة الرضوان، سميت بهذه الآية، وقصتها: أنّ النبي ﷺ حين نزل الحديبية بعث جوّس[1] بن أمّية الخزاعي رسولاً إلى أهل مكة، فهموا به فمنعه الأحابيش، فلما رجع دعا بعمر رضي الله عنه ليبعثه فقال: إني أخافهم على نفسي، لما عرف من عداوتي إياهم وما بمكة عدويّ يمنعني، ولكني أدلك على رجل هو أعز بها مني وأحب إليهم: عثمان بن عفان فبعثه فخبرهم أنه لم يأت بحرب، وإنما جاء زائرًا لهذا البيت معظمًا لحرمته، فوقروه وقالوا: إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فقال: ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله ﷺ واحتبس عندهم فأرجف بأنهم قتلوه، فقال رسول الله ﷺ: لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة وكانت سمرة. قال جابر بن عبد الله: لو كنت أبصر لأريتكم مكانها. وقيل: كان رسول الله ﷺ جالسًا في أصل الشجرة وعلى ظهره غصن من أغصانها. قال عبد الله بن المغفل: وكنت قائمًا على رأسه وبيدي غصن من الشجرة أذب عنه. فرفعت الغصن عن ظهره، فبايعوه على الموت دونه، وعلى أن لا يفروا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أنتم اليوم خير أهل الأرض» وكان عدد المبايعين ألفًا وخمسمائة وخمسة وعشرين، وقيل: ألفًا وأربعمائة، وقيل: ألفًا وثلثمائة (١٤٤٢) ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه ﴿فَأَنزَلَ

١٤٤٢ ـ أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٢٣ ـ ٣٢٧ ـ ٣٢٨ ـ ٣٣١) من طرق مختلفة عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، فذكراه.

وأخرج الطبري في تفسيره (١١/ ٣٤٧) رقم (٣١٥١٤) عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن إسحاق قال: حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ دعا خراش بن أمية الخزاعي، فبعثه إلى مكة... فذكره وأخرج الطبري في تفسيره (١١/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨) رقم (٣١٥١٥) عن عكرمة مولى ابن عباس: «أن رسول الله ـ ﷺ ـ دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له... فذكره وأخرج الطبري في تفسيره كذلك (١١/ ٣٤٨) رقم (٣١٥١٦) عن محمد بن إسحاق قال: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ـ ﷺ ـ حين بلغه أن عثمان قد قتل، قال: لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا الناس إلى البيعة... فذكره.

وقوله: فبايعوه تحت الشجرة وكانت سمرة:

أخرجه مسلم (٧/ ٥ ـ النووي): كتاب الإمارة باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال. =

---

(١) «جواس» الذي في أبي السعود وفي الشهاب: خراش، بالخاء والراء والشين، اهـ ملخصًا من هامش، وكذا في النسفي والخازن. (ع)

﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ أي: الطمأنينة والأمن بسبب الصلح على قلوبهم ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وقرئ: «وآتاهم» وهو فتح خيبر غب انصرافهم من مكة. وعن الحسن: فتح هجر، وهو أجلّ فتح: اتسعوا بثمرها زمانًا ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هي مغانم خيبر، وكانت أرضًا ذات عقار[1] وأموال، فقسمها ـ رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ عليهم، ثم أتاه

= وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، حديث (٦٧/٧ ـ ٦٨ ـ ٦٩ ـ ١٨٥٦/٧٠) عن أبي الزبير عن جابر أنه سئل: كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنا أربع عشرة مائة فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة.

وقول جابر لو كنت أبصر لأريتكم مكانها:

أخرجه البخاري (٨/ ٢١١): كتاب المغازي: باب غزوة الحديبية، حديث (٤١٥٤)، ومسلم (٧/ ٦ ـ النووي): كتاب الإمارة: باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، حديث (٧١/ ١٨٥٦). كلاهما من طريق عمرو عن جابر ـ رضي الله عنه به.

وحديث عبد الله بن المغفل:

أخرجه النسائي في «السنن الكبرى»: (٦/ ٤٦٥) كتاب التفسير: سورة الفتح: قوله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم﴾ حديث (١١٥١٠/ ٢).

وقوله عليه السلام: «أنتم اليوم خير أهل الأرض» تقدم قريبًا.

وأما عدد المبايعين: ففيه ثلاث روايات كما ذكر المصنف:

فالرواية الأولى:

أخرجها البخاري (٨/ ٢١١): كتاب المغازي: باب غزوة الحديبية، حديث (٤١٥٣)، ومسلم (٧/ ٦ ـ النووي): كتاب الإمارة: باب استحباب مبايعة الإمام الجيش، حديث (٧٢/ ١٨٥٦) والرواية الثانية: أخرجاها في الصحيحين عن عمرو بن مرة عن جابر قال: كنا يوم الحديبية... وقد تقدم قريبًا بتمامه.

والرواية الثالثة: أخرجها البخاري (٨/ ٢١١): كتاب المغازي: باب غزوة الحديبية، حديث (٤١٥٥)، ومسلم (٧/ ٧ ـ النووي): كتاب الإمارة: باب استحباب مبايعة الإمام الجيش، حديث (٧٥/ ١٨٥٧) عن عمرو عن عبد الله بن أبي أوفى به.

وقال الحافظ ابن حجر: أما الأولى فمتفق عليها من حديث سالم بن أبي الجعد عن جابر، دون قوله: «وخمسًا وعشرين» وأما الثانية ففي رواية عمرو بن مرة عن جابر في الصحيحين، وفي رواية أبي الزبير عنه ومسلم وعندهما عن قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: «كم كان عدد الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة قال: قلت: فإن جابرًا قال: كانوا أربع عشرة مائة قال: رحمه الله لقد وهم، هو والله حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة» قال البيهقي في الدلائل: كأن جابرًا رجع عن رواية خمس عشرة. إلى ألف وأربعمائة؛ وكذلك قال البراء ومعقل بن يسار، وسلمة بن الأكوع. انتهى. والرواية الثالثة في الصحيحين من رواية عمرو بن مرة عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: «كان أصحاب الشجرة ألفًا وثلثمائة وكان من أسلم من المهاجرين. قلت: والرواية التي فيها ألفا وخمسمائة وخمسًا وعشرين، أخرجها ابن مردويه في تفسيره من حديث ابن عباس موقوفًا، وفي عددهم أقوال غير هذه بسطتها في شرح البخاري. انتهى.

(١) قوله: «ذات عقار» في الصحاح «العقار» بالفتح: الأرض والضياع والنخل. (ع)

عثمان بالصلح فصالحهم وانصرف بعد أن نحر بالحديبية وحلق.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ وهي ما يفيء على المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ المغانم يعني مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ يعني أيدي أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان حين جاءوا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب فنكصوا. وقيل: أيدي أهل مكة بالصلح ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفة ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعبرة يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان، وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم. وقيل: رأى رسول الله ﷺ فتح مكة في منامه، ورؤيا الأنبياء صلوات الله عليهم وحي، فتأخر ذلك إلى السنة القابلة، فجعل فتح خيبر علامة وعنوانًا لفتح مكة ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ويزيدكم بصيرة ويقينًا، وثقة بفضل الله.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ معطوفة على هذه، أي: فعجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، وقال: لم تقدروا عليها لما كان فيها من الجولة ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي قدر عليها واستولى وأظهركم عليها وغنمكموها. ويجوز في ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ النصب بفعل مضمر، يفسره ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ/ ٢/ ١٨٦أ بِهَا﴾ تقديره: وقضى الله أخرى قد أحاط بها. وأما ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ فصفة لأخرى، والرفع على الابتداء لكونها موصوفة بلم تقدروا، وقد أحاط بها: خبر المبتدأ، والجرّ بإضمار رُبّ. فإن قلت: قوله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٠] كيف موقعه؟ قلت: هو كلام معترض. ومعناه: ولتكون الكفة آية للمؤمنين فعل ذلك. ويجوز أن يكون المعنى: وعدكم المغانم، فعجل هذه الغنيمة وكف الأعداء لينفعكم بها، ولتكون آية للمؤمنين إذا وجدوا وعد الله بها صادقًا، لأنّ صدق الإخبار عن الغيوب معجزة وآية، ويزيدكم بذلك هداية وإيقانًا.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة ولم يصالحوا. وقيل: من حلفاء أهل خيبر لغلبوا وانهزموا ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ في موضع المصدر المؤكد، أي: سن الله غلبة أنبيائه سنة، وهو قوله تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ أيدي أهل مكة، أي: قضى بينهم وبينكم المكافة والمحاجزة بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة، وذلك يوم الفتح. وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله، على أنّ مكة فتحت عنوة لا صلحًا. وقيل: كان ذلك في غزوة الحديبية لما روي أنّ عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة، فبعث رسول الله ﷺ من هزمه وأدخله حيطان مكة (١٤٤٣). وعن ابن عباس رضي الله عنه: أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت. وقرئ: «تعملون» بالتاء والياء.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

وقرئ: «والهدي» «والهديّ» بتخفيف الياء وتشديدها، وهو ما يهدي إلى الكعبة: بالنصب عطفًا على الضمير المنصوب في صدّوكم. أي: صدّوكم وصدّوا الهدي وبالجر عطفًا على المسجد الحرام، بمعنى: وصدّوكم عن نحر الهدي ﴿مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ محبوسًا عن أن يباع، وبالرفع على: وصدّ الهدي. ومحله: مكانه الذي يحل فيه نحره،

١٤٤٣ ـ أخرجه الطبري في تفسيره: (١١/٣٥٦) رقم (٣١٥٦٠) من طريق ابن حميد عن يعقوب القُمّي عن جعفر عن ابن أبزى قال: لما خرج النبي ـ ﷺ ـ بالهدي... إلى آخره. وذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٦/٧٥) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن أبزى.

قال الحافظ ابن حجر:

أخرجه الطبري عن شيخه محمد بن حميد عن يعقوب القمي عن جعفر هو ابن أبي المغيرة عن ابن أبزى: قال «لما خرج النبي ـ ﷺ ـ بالهدي وانتهي إلى ذي الحليفة: قال له نمر: يا نبي الله، تدخل على حرب قوم حرب لك بغير سلاح ولا كراع؟ قال: فبعث إلى المدينة فلم يدع فيها كراعًا ولا سلاحًا إلا حمله، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل فسار حتى أتى منى فنزل بها. فأتاه عتبة بن عكرمة بن أبي جهل، قد خرج عليه في خمسمائة. فقال لخالد بن الوليد: يا خالد، هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل. فقال خالد: أنا سيف الله ورسوله فيومئذٍ سمي سيف الله، يا رسول الله ارم بي أين شئت، فبعثه على خيل، فلقي عكرمة في الشعب، فهزمه. حتى أدخله حيطان مكة ـ الحديث» وأخرجه ابن أبي حاتم من هذا الوجه وفي صحته نظر؛ لأن خالد لم يكن أسلم في الحديبية وظاهر السياق أن هذه القصة كانت في الحديبية. فلو كانت في عمرة القضية لأمكن. مع أن المشهور أنهم فيها لم يمانعوه ولم يقاتلوه. انتهى.

أي يجب. وهذا دليل لأبي حنيفة على أن المحصر محل هديه الحرم. فإن قلت: فكيف حل رسول الله ﷺ ومن معه وإنما نحر هديهم بالحديبية؟ قلت: بعض الحديبية من الحرم (١٤٤٤). وروي أن مضارب رسول الله ﷺ كانت في الحل، ومصلاه في الحرم (١٤٤٥). فإن قلت: فإذن قد نحر في الحرم، فلم قيل: ﴿مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾؟ قلت: المراد المحل المعهود وهو منىٰ ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة للرجال والنساء جميعًا. و﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ بدل اشتمال منهم أو من الضمير المنصوب في تعلموهم. والمعرة: مفعلة، من عره بمعنى عراه إذا دهاه[1] ما يكره ويشق عليه. و﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بأن تطؤهم، يعني: أن تطؤوهم غير عالمين بهم. والوطء والدوس: عبارة عن الإيقاع والإبادة. قال [من الكامل]:

وَوَطِـئْـتَـنَـا وَطْـأً عَـلَـى حَـنَـقٍ وَطْـأَ الْـمُـقَـيَّـدِ نَـابِـتَ الْـهَـرَمِ[2]

١٤٤٤ ـ أخرجه البخاري (٥/ ٦٤٤ ـ ٦٤٥): كتاب الصلح باب الصلح مع المشركين، حديث (٢٧٠١) من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ـ ﷺ خرج معتمرًا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت... إلى آخره، أ.هـ.
وقال الحافظ ابن حجر:
أخرجه البخاري من حديث ابن عمر قال: «خرج رسول الله ـ ﷺ ـ معتمرًا فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية» وفيه من رواية المسور ومروان: «أنه ـ ﷺ ـ قال لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا» قال البخاري: والحديبية خارج الحرم. انتهى.

١٤٤٥ ـ أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٢٣) من حديث الفتح: عن يزيد بن هارون عن محمد بن إسحاق ابن يسار عن الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: خرج رسول الله ـ ﷺ ـ عام الحديبية... فذكره بطوله وفيه: وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يصلي وهو مضطرب في الحل. أ.هـ.
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه أحمد من رواية المسور ومروان، في أثناء الحديث الطويل، قال: «وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يصلي في الحرم، وهو مضطرب في الحل».

---

(١) قوله: «بمعنى عراه إذا دهاه» عبارة الصحاح بلفظها: هو يعر قومه: أي يدخل عليهم مكروهًا يلطخهم به. والمعرة: الإثم. (ع)

(٢) ووطـئـتـنـا وطـأً عـلـى حـنـق وطـأ الـمـقـيـد نـابـت الـهـرم
وتـركـتـنـا لـحـمًا عـلـى وضـم لـو كـنـت تـسـتـبـقـي مـن الـلـحـم

لحرث بن وعلة الذهلي. والوطء: وضع القدم فوق الشيء بشدة. وهو كناية عن الإهلال. والحنق كسبب: الحقد والغيظ. والهرم ـ بالسكون ـ: ضرب من الحمض ترعاه الإبل، وبعير هارم: يرعى الهرم. يقول: أتيتنا مرتفعًا علينا بقوتك وشدة بطشك كوطء الجمل المقيد للهرم، النابت: أي الحديث النبات. ويروى: يابس الهرم فيهلكه لعظمه وقوته، مع رطوبة ذلك النبات وضعفه، أو مع يبسه فيتفتت، فجعله مقيدًا لتكون بطشته قوية؛ حيث يرفع رجليه معًا ويضربها عند الوثوب. أو جعله مقيدًا؛ لأن الذليل إذا قدر لا يعفو. والوضم: خوان الجزار الذي يقطع عليه اللحم. و«لو» شرطية. جوابها دل عليه قوله: «تركتنا» أي: على فرض أنك تركت هنا بقية تركتنا كهذا اللحم الذي =

وقال رسول الله ﷺ: «وإن آخر وطأة وطئها الله بِوَجٍّ» (١٤٤٦) والمعنى: أنه كان بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميزين منهم ولا معروفي الأماكن: فقيل: ولولا كراهة أن تهلكوا ناسًا مؤمنين بين ظهراني المشركين وأنتم غير عارفين بهم، فتصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة: لما كف أيديكم عنهم، وحذف جواب «لولا» لدلالة الكلام عليه[1]. ويجوز أن يكون ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ كالتكرير للولا رجال مؤمنون، لمرجعهما إلى معنى واحد، ويكون ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ هو الجواب. فإن قلت: أي معرة تصيبهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون. قلت: يصيبهم وجوب الدية والكفارة، وسوء قالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز، والمأثم إذا جرى منهم بعض التقصير. فإن قلت: قوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ تعليل لماذا؟ قلت: لما دلت عليه الآية وسيقت له: من كف الأيدي عن أهل مكة، والمنع من قتلهم؛ صونًا لمن بين أظهرهم من المؤمنين، كأنه قال: كان الكف ومنع التعذيب ليدخل الله في رحمته؛ أي: في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنيهم. أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض: من زاله يزيله. وقرئ: «لو تزايلوا».

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿إِذْ﴾ يحوز أن يعمل فيه ما قبله. أي: لعذبناهم أو صدوهم عن المسجد الحرام/ ٢/ ١٨٦ب في ذلك الوقت، وأن ينتصب بإضمار اذكر. والمراد بحمية الذين كفروا وسكينة

١٤٤٦ ـ تقدم في آخر سورة براءة.

= يهيأ للآكل. وفي التعبير بلو: دلالة على أنه لم يستبق منهم.

البيت لزهير بن أبي سلمى في لسان العرب (هرم)، وتهذيب اللغة ٦/ ٢٩٦، وتاج العروس (هرم)، وليس في ديوانه، وللحارث بن وعلة في أمالي القالي ١/ ٢٦٣، وشرح القصائد السبع الطوال ص ٥٤٩، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي في ص ٢٠٦. وراجع قافية «نابت الهرم».

(١) قال محمود: «يجوز أن يكون جواب لولا محذوفًا... الخ» قال أحمد: وإنما كان مرجعهما ههنا واحدًا وإن كانت لولا تدل على امتناع لوجود. و«لو» تدل على امتناع لامتناع، وبين هذين تناف ظاهر؛ لأن لولا ههنا دخلت على وجود، ولو دخلت على قوله: (تزيلوا) وهو راجع إلى عدم وجودهم وامتناع عدم الوجود وجود، فآلا إلى أمر واحد من هذا الوجه. وكان جدي رحمه الله يختار هذا الوجه الثاني ويسميه تطرية، وأكثر ما تكون إذا تطاول الكلام وبعد عهد أوله واحتيج إلى رد الآخر على الأول، فمرة يطرى بلفظه، ومرة بلفظ آخر يؤدي مؤداه. وقد تقدمت لها أمثال، والله أعلم. وهو الموفق.

المؤمنين ـ والحمية الأنفة والسكينة والوقار ـ ما روي أنّ رسول الله ﷺ لما نزل بالحديبية بعثت قريش سهيل بن عمرو القرشي وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص بن الأخيف، على أن يعرضوا على النبي ﷺ أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلي له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام، ففعل ذلك، وكتبوا بينهم كتابًا، فقال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمٰن الرحيم»، فقال سهيل وأصحابه: ما نعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللّهم، ثم قال: «اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله ﷺ أهل مكة» فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة، فقال عليه الصلاة والسلام: «اكتب ما يريدون، فأنا أشهد أني رسول الله وأنا محمد بن عبد الله» (١٤٤٧) فهمَّ المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزوا منه، فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا. و﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ بسم الله الرحمٰن الرحيم ومحمد رسول الله: قد اختارها الله لنبيه وللذين معه أهل الخير ومستحقيه ومن هم أولى بالهداية من غيرهم. وقيل: هي كلمة الشهادة. وعن الحسن رضي الله عنه: كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد. ومعنى إضافتها إلى التقوى: أنها سبب التقوى وأساسها. وقيل: كلمة أهل التقوى. وفي مصحف الحرث بن سويد صاحب عبد الله: «وكانوا أهلها وأحق بها»، وهو الذي دفن مصحفه أيام الحجاج.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

رأى رسول الله ﷺ قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا، فقصّ الرؤيا على أصحابه، ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في

١٤٤٧ ـ أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ٩٩ ـ ١٠٨) عن عروة بن الزبير وأخرجه النسائي في «تفسيره» (٢/ ٣١٢ ـ ٣١٣) رقم (٥٣٠) من طريق ثابت البناني عن عبد الله بن المغفل بنحوه، ومن طريق ثابت أخرجه. أحمد (٤/ ٨٦ ـ ٨٧)، والحاكم (٢/ ٤٦٠ ـ ٤٦١)، والطبري في «تفسيره» (٢٦/ ٥٨ ـ ٥٩)، والبيهقي في سننه (٦/ ٣١٩)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وصحح إسناده الحافظ في «الفتح» (٥/ ٣٥١) وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: أخرجه البيهقي في الدلائل من رواية عروة في قصة الحديبية. وفيه ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو... إلخ مطولاً، والقصة في الصحيح من رواية البراء بن عازب، ومن رواية مروان والمسور. وفي النسائي مختصرة من رواية ثابت البناني عن عبد الله بن مغفل. انتهى.

عامهم، وقالوا: إن رؤيا رسول الله ﷺ حق، فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبيّ وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث: والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام، فنزلت (١٤٤٨). ومعنى: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ صدقه في رؤياه ولم يكذبه ـ تعالى الله عن الكذب وعن كل قبيح علوًا كبيرًا ـ فحذف الجارّ وأوصل الفعل، كقوله تعالى: ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. فإن قلت: بم تعلق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؟ قلت: إمّا بصدق، أي: صدقه فيما رأى، وفي كونه وحصوله صدقًا ملتبسًا بالحق: أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة، وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن المخلص، وبين من في قلبه مرض، ويجوز أن يتعلق بالرؤيا حالاً منها أي: صدقه الرؤيا ملتبسًا[1] بالحق، على معنى أنها لم تكن من أضغاث الأحلام. ويجوز أن يكون ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ قسمًا: إمّا بالحق الذي هو نقيض الباطل. أو بالحق الذي هو من أسمائه. و﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ جوابه. وعلى الأوّل هو جواب قسم محذوف. فإن قلت: ما وجه دخول ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ في أخبار الله عز وجل؟ قلت: فيه وجوه: أن يعلق عدته بالمشيئة تعليمًا لعباده أن يقولوا في عداتهم مثل ذلك، متأدّبين بأدب الله، ومقتدين بسنته. وأن يريد: لتدخلنّ جميعًا إن شاء الله ولم يمت منكم أحدًا، أو كان ذلك على لسان ملك، (فأدخل الملك إن شاء الله)[2] . أو هي حكاية ما قال رسول الله ﷺ لأصحابه وقصّ عليهم. وقيل: هو متعلق بآمنين ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ من الحكمة والصواب في تأخير فتح مكة إلى العام القابل ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي من دون فتح مكة ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر، لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود.

١٤٤٨ ـ أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٣/٣١٦) وأخرجه الطبري (١١/٣٦٧) عن مجاهد، وأخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/٣٦٧) رقم (٣١٦٠٤) عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم به.
وقال الحافظ ابن حجر:
لم أجده هكذا مفسرًا، وروى الطبري من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) ـ الآية فقال لهم النبي ـ ﷺ ـ: «إني قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام محلقين رؤوسكم ومقصرين. فلما ترك الحديبية ولم يدخل ذلك العام طعن المنافقون في ذلك، فقالوا: أين رؤياه، فقال الله: (لقد صدق الله رسوله الرؤيا) ـ الآي: وروى الطبري من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: «أرى رسول الله ـ ﷺ وهو بالحديبية أنه يدخل في أهل مكة هو وأصحابه محلقين فلما نحر الهدي وهو بالحديبية قال أصحابه: أين رؤياك يا رسول الله؟ فنزلت، وبه قال وقوله: (فجعل من دون ذلك فتحًا قريبًا) قال: النحر بالحديبية. فرجعوا ففتحوا خيبرًا. وقال: ثم اعتمر بعد ذلك فكان تصديق رؤياه في السنة المقبلة». انتهى.

---

(١) قوله: «أي «صدقه الرؤيا» ملتبسًا» لعله: ملتبسة. (ع)
(٢) هذا الكلام لا يصح، انظر التعليق عليه في ص ١١ من الجزء الأول.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ بدين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ليعليه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على جنس الدين كله، يريد: الأديان المختلفة من أديان المشركين والجاحدين من أهل الكتاب: ولقد حقق ذلك سبحانه، فإنك لا ترى دينًا قط إلا وللإسلام دونه العز والغلبة. وقيل: هو عند نزول عيسى حين لا يبقى على وجه الأرض كافر. وقيل: هو إظهاره بالحجج والآيات. وفي هذه الآية تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أنّ الله تعالى سيفتح لهم من البلاد ويقيض لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون إليه من فتح مكة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنّ ما وعده كائن. وعن الحسن رضي الله عنه: شهد على نفسه أنه سيظهر دينك[1].

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

﴿مُّحَمَّدٌ﴾ إما خبر مبتدأ، أي: هو محمد لتقدم قوله/ ٢/ ١٨٧أ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ [الفتح: ٢٨] وإما مبتدأ، ورسول الله: عطف بيان. وعن ابن عامر أنه قرأ: رسول الله، بالنصب على المدح ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أصحابه ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ جمع شديد ورحيم. ونحوه ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وعن الحسن رضي الله عنه: بلغ من تشدّدهم على الكفار: أنهم كانوا يتحرّزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم؛ وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنًا إلا صافحه وعانقه، والمصافحة لم تختلف فيها الفقهاء. وأما المعانقة فقد كرهها أبو حنيفة رحمه الله، وكذلك التقبيل. قال لا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه ولا يده ولا شيئًا من جسده. وقد رخص أبو يوسف في المعانقة. ومن حق المسلمين في كل زمان أن يراعوا هذا التشدّد وهذا التعطف: فيتشدّدوا على من ليس على ملتهم ودينهم ويتحاموه، ويعاشروا إخوتهم في الإسلام متعطفين بالبر والصلة. وكف الأذى. والمعونة، والاحتمال،

---

(١) قوله: «إنه سيظهر دينك» لعله: دينه، كعبارة النسفي. (ع)

والأخلاق السجيحة[1] ووجه من قرأ: «أشداء، ورحماء» بالنصب ـ: أن ينصبهما على المدح، أو على الحال بالمقدّر في ﴿مَعَهُۥ﴾، ويجعل ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ الخبر ﴿سِيمَاهُمْ﴾ علامتهم. وقرئ: «سيماؤهم» وفيها ثلاث لغات: هاتان. والسيمياء، والمراد بها السمة التي تحدث في جبهة السجاد من كثرة السجود، وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ يفسرها، أي: من التأثير الذي يؤثره السجود، وكان كل من العليين: عليّ بن الحسين زين العابدين، وعليّ بن عبد الله بن عباس أبي الأملاك، يقال له: ذو الثفنات؛ لأنّ كثرة سجودهما أحدثت في مواقعه منهما أشباه ثفنات[2] البعير. وقرئ: «من أثر السجود» و«من آثار السجود»، وكذا عن سعيد بن جبير: هي السمة في الوجه. فإن قلت: فقد جاء عن النبي ﷺ: «لا تعلبوا[3] صوركم» (١٤٤٩)، وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه رأى رجلاً قد أثر في وجهه السجود فقال: إن صورة وجهك أنفك، فلا تعلب وجهك، ولا تشن صورتك (١٤٥٠). قلت: ذلك إذا اعتمد بجبهته على الأرض لتحدث فيه تلك السمة. وذلك رياء ونفاق يستعاذ بالله منه، ونحن فيما حدث في جبهة السجاد الذي لا يسجد إلا خالصًا لوجه الله تعالى. وعن بعض المتقدّمين: كنا نصلي فلا يرى بين أعيننا شيء، ونرى

١٤٤٩ ـ بيض له الزيلعي في «تخريجه» (٣/ ٣١٧)، وقال ابن حجر: لم أجده مرفوعًا وهو في الذي بعده موقوف. انتهى.
وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده مرفوعًا وهو في الذي بعده. موقوف. انتهى.

١٤٥٠ ـ أخرجه عبد الرزاق (٢/ ١٧٣ ـ ١٧٤) رقم (٢٩٤١) من طريق الثوري عن الأعمش عن حبيب عن أبي الشعثاء عن ابن عمر أنه. . . فذكره.
وفي تخريج الزيلعي (٣/ ٣١٧): ورواه إبراهيم الحربي في كتابه غريب الحديث: ثنا أحمد بن جعفر ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن حبيب عن عطاء عن ابن عمر أنه رأى رجلاً قد أثر السجود في وجهه فقال: لا تعلب صورتك. انتهى.
وقال الحافظ ابن حجر:
أخرجه عبد الرزاق عن الثوري، عن الأعمش، عن حبيب، عن أبي الشعثاء، عن ابن عمر: أنه رأى رجلاً ينتحز إذا سجد فقال: لا تقلب صورتك، يقول لا تؤثرها، قلت: ما تقلب صورتك؟ قال: لا تغير لا تشن، ورواه إبراهيم الحربي من رواية أبي معاوية، عن الأعمش، عن حبيب، عن عطاء، عن عمر: «أنه رأى رجلاً قد أثر السجود بوجهه فقال: لا تقلب صورتك. ثم قال: قلبت الشيء إذا أثرت به. انتهى.

---

(١) قوله: «والأخلاق السجيحة» أي السهلة. أفاده الصحاح. (ع)
(٢) قوله: «ثفنات البعير» في الصحاح: هي ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ. (ع)
(٣) قوله: «لا تعلبوا صوركم» في الصحاح: علبته أعلبه ـ بالضم ـ: إذا وسمته أو خدشته، أو أثرت فيه. (ع)

أحدنا الآن يصلي فيرى بين عينيه ركبة البعير، فما ندري أثقلت الأرؤس أم خشنت الأرض وإنما أراد بذلك من تعمد ذلك للنفاق. وقيل: هو صفرة الوجه من خشية الله. وعن الضحاك: ليس بالندب[1] في الوجوه، ولكنه صفرة. وعن سعيد بن المسيب: ندى الطهور وتراب الأرض. وعن عطاء رحمه الله: استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل، كقوله: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» (١٤٥١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوصف ﴿مَثَلُهُمْ﴾

١٤٥١ ـ أخرجه ابن ماجه (١/ ٤٢٢) كتاب الصلاة باب ما جاء في قيام الليل حديث (١٣٣٣) وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٥٢٦) والعقيلي (١/ ١٧٦) والقضاعي في «مسند الشهاب» (٤٠٨، ٤٠٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٣٤١، ١٣/ ١٢٦) وابن حبان (١/ ٢٠٧) وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ١٠٩ ـ ١١١) كلهم من طريق ثابت بن موسى الضرير عن شريك عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي ـ ﷺ ـ. وقال العقيلي: هذا حديث باطل ليس له أصل. وثابت ابن موسى الضرير.

قال ابن حبان: كان يخطىء كثيرًا لا يجوز الاحتجاج بخبره إذا انفرد، وهو الذي روى عن شريك وذكر القصة، ثم قال: وذكر هذا من ثابت جماعة من الضعفاء.

وقال ابن عدى: وبلغني عن محمد بن عبد الله بن نمير أنه ذكرله [هذا] الحديث عن ثابت فقال: باطل وكان شريك مزاحًا وكان ثابت رجلاً صالحًا فشبه أن يكون ثابت دخل على شريك وهو يقول حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي ـ ﷺ ـ فالتفت فرأى ثابتًا فقال يمازحه: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، فظن ثابت أن هذا الكلام هو متن الإسناد الذي قرأه فحمله على ذلك، وإنما هو قول شريك أ.هـ. وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ونقل كلام ابن عدي وأقره. وللحديث شاهد من حديث أنس.

أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ١١١) من طريق حكامة بنت عثمان بن دينار قال: حدثني أبى عن أخيه مالك بن دينار عن أنس مرفوعًا وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ـ ﷺ ـ وهذا السند فيه عثمان بن دينار روت حكامة أحاديث بواطيل لا أصل لها أ.هـ.

وقال ابن أبي حاتم في العلل: قال أبي: هذا حديث موضوع.

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن ماجه عن إسماعيل الطلحي، عن ثابت بن موسى، عن شريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر مرفوعًا بهذا، واتفق أئمة الحديث وابن عدى، والدارقطني، والعقيلي، وابن حبان، والحاكم على أنه من قول شريك قاله لثابت لما دخل. وقال ابن عدي: سرقه جماعة من ثابت كعبد الله بن شبرمة الشريكي، وعبد الحميد بن بحر وغيرهما، وأورده صاحب مسند الشهاب من رواية عبد الرزاق عن الثوري، وابن جريج عن أبي الزبير عن جابر، وهو موضوع على هذا الإسناد. وكذا من رواية الحسين بن حفص عن الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر والأمر فيه كذلك. ومن طرق أخرى واهية. قال ابن طاهر: ظن القضاعي أن الحديث صحيح، لكثرة طرقه. وهو معذور لأنه لم يكن حافظًا. وله طرق أخرى من غير رواية جابر أخرجه ابن جميع في معجمه من حديث أنس وابن الجوزي من وجه آخر عنه وهو باطل أيضًا من الوجهين. انتهى.

---

(١) قوله: «ليس بالندب في الوجوه» في الصحاح «الندب»: أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد. (ع)

أي وصفهم العجيب الشأن في الكتابين جميعًا، ثم ابتدأ فقال: ﴿كَزَرْعٍ﴾ يريد: هم كزرع. وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ ثم ابتدىء: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ ويجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر: ٦٦]. وقرئ: «الأنجيل» بفتح الهمزة ﴿شَطْأَهُ﴾ فراخه. يقال: أشطا الزرع إذا فرّخ. وقرئ: «شطأه» بفتح الطاء. وشطاه، بتخفيف الهمزة: وشطاءه بالمدّ. وشطه، بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى ما قبلها. وشطوه، بقلبها واوًا ﴿فَآزَرَهُ﴾ من المؤازرة وهي المعاونة. وعن الأخفش: أنه أفعل. وقرئ: «فأزره» بالتخفيف والتشديد، أي: فشدّ أزره وقوّاه. ومن جعل (آزر) أفعل، فهو في معنى القراءتين ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ فصار من الدقة إلى الغلظ ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ فاستقام على قصبه جمع ساق. وقيل: مكتوب في الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وعن عكرمة: أخرج شطأه بأبي بكر، فآزره بعمر، فاستغلظ بعثمان، فاستوى على سوقه بعليّ. وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم، لأنّ النبي ﷺ، قام وحده. ثم قوّاه الله بمن آمن معه كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزرّاع. فإن قلت: قوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ تعليل لماذا؟ قلت: لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوّة، ويجوز أن يعلل به ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأنّ الكفار إذا سمعوا بما أعدّ لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك. ومعنى ﴿مِنْهُم﴾ البيان، كقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠].

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قرأ/ ٢/ ١٨٧ب سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع محمد فتح مكة» (١٤٥٢).

١٤٥٢ ـ تقدم برقم ٣٤٦، وقال الحافظ: أخرجه ابن مردوية، والواحدي بالإسناد إلى أبي بن كعب. انتهى.